المحاضرة 04

التوسع الاستعماري خلال القرن التاسع عشر ووضعية علم الأنثروبولوجي

وفي أواسط القرن التاسع عشر بدأ التوسع الأوربي الذي دخل مرحلته النهائية بالامتداد نحو مناطق غير مطروقة، هكذا بدأت الرحلة غربا، وصار المشرق إلى جانب العديد من المواضع المليئة بالأسرار مسرحا له، فالثروات الطائلة تنتظر الغرب كي ينهبها، هذا في الوقت الذي لم تهتم فيه تلك المدنية بما فيه الكفاية بالشعوب التي تسكن تلك الأرض، أو التي تملك الأرض وتستثمرها بشكل شرعي، لذلك رأى هذا العلم الإنساني الجديد أن من واجبه دراسة هذه الشعوب وتصنيفها على خرائط وبيانات قبل البدء بعملية تمدينها. وحتى افريقيا لم تشذ من هذه الناحية على القاعدة فحتى نهاية القرن الثامن عشر لم تكن المعلومات عن داخل القارة وافية بما فيه الكفاية.[1]

لقد تميز عصر النهضة بظواهر كان لها تأثير على توليد نظريات جديدة إلى العالم والإنسان، هي أن المفكرين قد اتفقوا جميعهم، بالرغم من تباين وجهات نظرهم، على مناهضة فلسفة العصور الوسطى اللاهوتية، التي أعاقت فضول العقل الإنساني إلى معرفة أصول الأشياء ومصادرها، وتكوين الطبيعة وقوانينها، وصفات الإنسان الجسدية والعقلية والأخلاقية، وكان تومسون قد وصف هذا التحول الفكري بقوله أن العقل في عصر النهضة لم يحصر تفكيره في الاهتمام بأمور الفردوس والجحيم شأن الناس في عصر الايمان أي العصر الوسيط" ويقصد العصر الوسيط في أوربا"، وإنما بدأ الناس يهتمون بالعالم المباشر من حولهم، كما اتجه تفكيرهم صوب الاهتمام والتفكير في الشؤون الدنيوية.[2]

وقد كان لتبني هذا الاتجاه الجديد في دراسة الإنسان، أن ظهر مذهب علمي يركز على دراسة الإنسان في أحداثه ومساراته وانجازاته مهما كان مستواها التقني والتكنولوجي، وهذا من أجل فهم الحاضر، ومن ثمة كان التركيز على دراسة الطبيعة الإنسانية والعمل على فهم ماهيتها وأبعادها من خلال تتبع المسارات التاريخية التطورية للإنسان – والمجتمع.

وقد كان تبني الاتجاه العلمي في دراسة الإنسان من خلال اعتباره ظاهرة طبيعية، أو هو جزء من الطبيعة والنظام الطبيعي أو الكوني، نتيجة تبلور وتطور الاتجاه العلمي في العلوم الطبيعية" التجريبية والرياضية من خلال

---

[1] – جيرار ليكلرك: الأنتروبولوجيا والاستعمار،

[2] – عبد الرحمن زكي: حضارة عصر النهضة،

مجهودات العديد من العلماء والمفكرين من أمثال فرانسيس بيكون F. Becon "1561،1626"، ورينيه ديكارت R.Decartes"1596،1650"، وإسحاق نيوتن I.Newton"1642،1727"، حيث تغيرت النظرة الكلاسيكية للإنسان، وساد مبدأ إمكانية دراسة الإنسان كجزء من النظام الطبيعي أو الكوني وذلك من خلال تطبيق المنهج العلمي والمنهج التجريبي، من أجل الكشف والتوصل إلى القوانين التي تتحكم في مسيرة التطور البشري، والتقدم الاجتماعي للإنسان، وقد أثر هذا الاتجاه الجديد في أوربا خلال هذه الفترة على بلورة منطلقات نظرية جديدة للتفكير الاجتماعي، والذي بدوره أثر تدريجيا في تشكل المنطلقات النظرية للأنتروبولوجيا خلال عصر التنوير أو الأنوار كما يسميه البعض.

ففي فرنسا فقد كان لفيلسوف السياسة الفرنسي جان بودان Bodin"1530،1596"جهودا معتبرة للنهوض بالأنثروبولوجية أو ما سمي بالجغرافيا- الأنثروبولوجية، غير أن النهوض والتقدم الحقيقي الذي تحقق للأنثروبولوجيا كان من خلال ما قدمه مونتسكيو "Montesquieu " " 1689-1755"

والعديد من علماء الاجتماع يكنون إعجابا واحتراما للفيلسوف مونتسكيو الذي ينتمي إلى عصر الأنوار ولعل السبب الرئيسي في ذلك يعود إلى الاهتمام التفكيري لمونتسكيو والذي كان وضعيا ولم يكن معياريا بخلاف الكثيرين من مفكري عصره، فعند دراسته وتحليل مجتمع عصره ابتعد عن التصور المثالي لما هو اجتماعي، وكانت دراساته عقلانية إن لم نقل أنها ارتقت إلى مستوى عال من المنهجية.[3]

وكان مونتسكيو يعتقد أن كل شيء في المجتمع ذاته وما يحيط به يرتبط بكل شيء آخر ارتباطا وظيفيا، حيث لا يمكن فهم القانون الدولي أو الدستوري أو القانون الجنائي أو القانون المدني لدى شعب من الشعوب إلا إذا كان الاهتمام منصبا حول دراسة العلاقات بين كل هذه الأنواع المختلفة من القانون، ثم تتبع العلاقة بين هذه الفروع من القانون كلها بالبيئة الطبيعية والحياة الاقتصادية وعدد السكان ومعتقداتهم والعرف والأخلاق، إضافة إلى معرفة أمزجة الناس هناك، وحسب مونتسكيو فالكتاب يهدف إلى اختبار كل هذه العلاقات المتبادلة التي تؤلف فيما بينها ما يسمى بروح الشرائع أو روح القوانين.[4]

ومن أبرز الإسهامات السوسيولوجية والأنتروبولوجية التي تضمنها كتاب روح القوانين إلى جانب ثرائه بالآراء الفلسفية والسياسية نجد تأكيده على ضرورة التمسك بالقانون العلمي في دراسة سير حياة المجتمع، والتخلي عن الرؤى والطروحات الميتافيزيقية

وبخصوص الجانب الاجتماعي فسر مونتسكيو معالم الحياة الاجتماعية تفسيرا وظيفيا، من خلال تتبع الأدوار التي تؤديها النظم على اختلافها سواء الاقتصادي أو السياسي أو الديني، ويرى أن مردها إلى ما يمكن

[3] - René Revol,in Gilles Ferréd'Dir', Histoire de la pense sociologique,
[4] - l' Esprit des lois;ed;Gonzague Truc.

تسميته :"الروح العامة L'esprit générale" والتي هي بمثابة الوعاء العام الذي يؤدي دور الربط والتساند بين العلاقات الاجتماعية، والتي تصنع مجتمعة ما يسمى بروح القوانين. كما يرى مونتسكيو أن طبيعة المجتمع تختلف عن مبدأ المجتمع، فالأولى هي الحالة التي يكون عليها المجتمع في الأوقات العادية وهذه الحالة يمكننا القول أنها تمثل البناء الاجتماعي، والثانية فهي شبيهة بالميكانيزم الذي يساهم في عمل وفاعلية المجتمع، وهي التي غالبا ما تمثلها منظومة القيم.

وقد كان لكتاب روح القوانين قيمة أنثروبولوجية لما تضمنه من مقارنات بين النظم المختلفة ، سواء ما كان قائما في العالم القديم أو أستكشف في العالم الجديد.[5]

وإذا نظرنا للفكر الألماني في فترة التنوير محاولين البحث عن أرضية فكرية يمكن أن تقوم عليها بعض ركائز الفكر الأنثروبولوجي، فنجد أن الأعمال الاثنوغرافية والأنثروبولوجية لدى الألمان كانت تنتج لتحقيق هدف إبراز صفاء ونقاء العنصر الجرماني، وإبراز قدراته الخارقة في بناء الحضارة والقدرة على الإبداع والابتكار عكس الشعوب والأجناس الأخرى، وهذا ما يبرز الاختلاف بين الفكر الفرنسي والفكر الألماني.

واحتضنت المدرسة الألمانية نظرية السيادة العنصرية للجنس الجرماني ورتبت عليها من الناحية السياسية ضرورة قهر الشعوب المنحطة، بما ينجم عنه من توسع وغزو وحروب طاحنة، وقد بذر هيجل وفخته بذور هذه الفلسفة في الشعب الألماني، فاعتنق هيجل نظرية الارتقاء وبقاء الأصلح، وطبقها فخته على الجنس الجرماني باعتباره الجنس المختار وأنه الجدير بالخلود والبقاء، وتولد عن هذه الاتجاهات نزعة قومية تعصبية أشعلتها كتابات كل من فريدريك شليجل ليست، والفنان ريشارد فاجنر، والكاتب الانجليزي الألماني تشامبرلين الذي كان من أشد غلاة نظرية التفوق العنصري، وقد تبنت النازية الألمانية آراء تشمبرلين واتخذتها أساسا لسياستها العنصرية في تطهير البلاد لضمان نقاوة العنصر الألماني، حيث نصت المادة الرابعة من برنامج الحزب الاشتراكي أنه لا يحق لغير الذين ينحدرون من دم ألماني مهما كان مذهبهم أن يكونوا أعضاء في الأمة الألمانية..[6]

وكان من بين الموضوعات البحثية ذات الصلة بالنزعة العنصرية، هو اهتمام بعض الباحثين والمستشرقين بدراسات حول العرق واللغة والحضارة، وكمثال عن ذلك ما قام به وليم جونز W.Jones من محاولات التدليل على وجود علاقة بين اللغة السنسيكريتية واللغات الأوربية القديمة، وبالمناسبة فقد استغل منصب عمله لما كان قاضيا بالهند وقام بهذه الأبحاث

---

[5] – حسين فهيم : قصة الأنثروبولوجيا، فصول في تاريخ علم الإنسان، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، جمادى الأولى 1406هـ، فبراير 1986م، ص96، ص97.

[6] – أحمد الخشاب: دراسات أنثروبولوجية، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، 1958، ص140،ص142

ولكن بالمقابل تعرض هذا الاتجاه إلى جملة من الانتقادات من قبل أنثروبولوجيين مع بدايات القرن العشرين، مما انبثق عنه اتجاها رافضا لقاعدة الحكم من خلال لغة ما على الانتماء إلى أصل عرقي واحد، ولا يصح منطقيا الربط بين الجنس واللغة واتخاذها ذريعة لصناعة الاختلاف بين الشعوب، كما رفضت الأنثروبولوجيا طروحات النازية العنصرية، وأبطلت الكثير من الطروحات التي جاءت بها والمبنية أساسا على تفوق العنصر الآري الجرماني في صناعة الحضارة، فالشواهد المادية والتاريخية تبرز قيام حضارات عريقة لدى أجناس أخرى كتلك الحضارات التي قامت بالشرق الأدنى والأوسط، كالحضارة الصينية، والحضارة المصرية القديمة.

يذكر عالم الأنثروبولوجيا البريطاني ايفانز بريتشارد قائلا:" أننا نستطيع أن نجد في التفكير النظري الذي كان سائدا في القرن الثامن عشر كل عناصر ومكونات النظرية الأنثروبولوجية في القرن التاسع عشر، وبل في القرن العشرين أيضا نجد الاهتمام الشديد بالنظم الاجتماعية، واعتبار المجتمعات البشرية أنساقا طبيعية يجب أن تدرس دراسة تجريبية استقرائية، يكون الغرض منها كشف المبادئ الكلية أو القوانين، ثم صياغتها بالخصوص على شكل مراحل التطور التي يمكن الوصول إليها باستخدام منهج المقارنة، الذي يعتمد على التاريخ الظني اعتمادا كبيرا، ولكن الغرض النهائي أو الأخير من الدراسة يجب أن يكون تحديد الأخلاق بطريقة علمية خالصة."[7]

كذلك من أبرز ما ميز الفكر الأنثروبولوجي خلال عصر الأنوار والنهضة بأوربا هو غلبة الطابع الموسوعي في التأليف، ولكنه تدرج فيما بعد إلى التخصص والاهتمام البحثي الدقيق، فبرزت العديد من الاثنوغرافيات التي تتناول موضوعا جزئيا محددا،

ولعبت الجمعيات العلمية دورا هاما في بلورة الفكر الأنثروبولوجي ودفعه نحو التخصص المهني والاستقلالية، فقد كانت هذه الجمعيات تشكل مقرات ومنتديات يجتمع فيها رجال الفكر والسياسة وعلية القوم، الذين كان لهم اسهام في تمويل البحوث، وتبني المشاريع العلمية والدراسات الأكاديمية، ويذكر العديد من مؤرخي الأنثروبولوجيا أن أول جمعية مهنية متخصصة وجهت جهودها واهتمامها نحو الدراسات الأنثروبولوجية قد أنشئت في باريس عام 1800 تحت اسم ملاحظو الانسان:" Les observateurs de l' homme " ورغم الدور المحدود لهذه الجمعية غير أنها فتحت الباب لمبادرات عديدة لاحقا للإنشاء جمعيات أنثروبولوجية متخصصة، خصوصا لما أصبحت الموضوعات الأنثروبولوجية قد بدأت تستحوذ على اهتمام الناس عامة في بلاد أوربا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية، حيث تأسست عام 1839 الجمعية الاثنولوجية بفرنسا، وفي عام 1842 تأسست الجمعية الاثنولوجية الأمريكية، وفي العام الموالي قامت مثيلتها في بريطانيا، والتي تحولت فيما بعد الى :" المعهد

[7] – ادوارد ايفانز بريتشارد: الأنثروبولوجيا الاجتماعية،

الملكي الانتروبولوجي لبريطانيا العظمى وايرلندا Royal Anthropological Institute of Great Britain and Ireland ويعتبر هذا المعهد أكبر مدرسة للفكر الأنثروبولوجي في بريطانيا.[8]

ولم يقتصر الأمر على تأسيس الجمعيات الأنتروبولوجية بفرنسا وأمريكا وأنجلترا ، بل توسع الأمر وانتشرت وزادت سمعة وشعبية تخصص الأنتروبولوجيا، فتوسعت ودخلت العديد من البلدان وتحديدا بعواصم كبيرة على غرار موسكو ومدريد ، وبرلين، وفينا.

أ.د. رحاب مختار

[8] – حسين فهيم: المرجع السابق ، ص124،ص125